المجاز بذكر بادية أشراف الحجاز (١)

بواسطة الشريف محمد الصمداني
الثلاثاء ٢٧ شوال ١٤٢٨ هـ

الحمد لله رب العالمين و الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد و على آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فأثناء قراءتي لكتاب " نسب قريش "كان يستوقفني دخول ذرية بعض أبناء الصحابة القرشيين لبوادي الحجاز ، و كان هذا الأمر مطرداً في أعقابهم ، ثم لما شرعت في تحقيق كتاب " عمدة الطالب " لابن عنبة ، كان يزداد ذلك الأمر وضوحاً و ظهوراً ، خاصة في أنساب الطالبيين بالحجاز و خاصة منهم ذرية الحسن والحسين رضي الله عنهما ، فكانت سكنى بوادي الحجاز ظاهرة غير خافية في حياة الأشراف ، فيقال عن أحد الأعقاب والذرية ، هم " بادية حول المدينة " ، أو يقال ، و هم " بوادي حول مكة " ، و نحو ذلك من العبارات .

و قد يبدو للوهلة الأولى ، أن هذه الظاهرة تجري على سنن العرب الأقحاح من اهتمامهم بالبادية و التخلق بأخلاق الأعراب و المحافظة على " المعدية العدنانية " ، و قد تبين بالسبر و الاستقراء ، أن هذا الأمر قديم في أشراف الحجاز ، و هو متوارث يجري في أجيالهم كجريان الدماء في أعقابهم .

و ممن نص على ذكر عقبه في " البادية " :

١. عقب عبدالله المحض بن الحسن بادية .

٢. **وأكثر سادات البادية من أولاد عبد الله بن موسى الجون .**

٣. عقب علي الغمقي ، وهو منسوب إلى الغمق منزل بالبادية ، كان ينزله وولده يعرفون بالغميقيين ويقال لهم الغموق ايضا وهم عدد كثير بالحجاز والعراق . كذا في عمدة الطالب .

٤. عقب **سليمان بن عبد الله بن موسى الجون** ، **وكان سيدا وجيها** ، **و ولده في بادية بالمخلاف** . كذا في " العمدة " . و في المجدي : **و ولده حوالي مكة بادية** .

٥. آل أبي الطيب ، حجازيون ، بادية ، لهم عدد .

٦. **و منهم : بنو حمزة ، بادية لهم عدد .**

٧. وولد الحسن بن موسى الثاني : هم بينبع ونواحيها بادية .

٨. **وولد على بن داود بن سليمان بادية حول مكة .**

٩. اسحاق بن عبد الله العالم بن الحسين الرسي : عقبه بادية بالحجاز .

١٠. **ومحمد بن الحسن بن عبد الله بن الحسن المكفوف** ، **قال الشيخ أبو الحسن العمرى** : **كان بدويا وله أولاد إلى يومنا بادية** . و كانت بعض قرابته : **لهم ذيل إلى وقتنا بادية** .

١١. و من عقب جعفر الطيار : " إسماعيل بالبادية بطن ".

١٢. و قال في العمدة :" **و بنو الطيار بادية كثيرة** " . و قال أحدهم :" **نحن بنو جعفر الطيار بادية مع آل مهنى نحو من أربعة آلاف فارس نحفظ أنسابنا وننكح في أعراب طى ولا ننكحهم** " .

١٣. وإدريس في عقبه سيادة بني جعفر ببادية الحجاز والعز والمنعة والبأس والعدد .

١٤. **محمد ويحيى ابنا على بن على بن سعيد وولد الحسن المخترق بن داود بن سليمان : بادية حول مكة .**

١٥. منهم : سبيع بن عيسى ، وولده بطن بمكة .

١٦. **وقال القاضى التنوخى : كان بدوياً ينزل آثال و هو منزل في طريق مكة .**

١٧. و من الأشراف الذين كانوا في البادية و كانت في أعقابهم كثرة : " **الأشراف الحرابيون** " . و يخطيء في معرفتهم كثير من النسابين ، و قد بقيت لهم أعقاب إلى القرن الثامن الهجري معروفة بالحجاز .

١٨. و من الموسوية الحسنية بالحجاز : **عقب أبي جعفر محمد ثعلب بن عبدالله الأكبر بن محمد الأكبر الثائر** ، قال ابن عنبة :" و يقال لولده : **الثعالبة** " [١] .

١٩. و من عقب الحسن المثلث : و لهم ذيلٌ إلى وقتنا بادية .

٢٠. و عبدالله العالم بن الحسين الرسي : من ولده أمة بالحجاز .

و غيرهم كثير ممن نص على وجود عقبه بالحجاز في كتب النسب [١].

و من النصوص العامة التي توضح سكنى بوادي الحجاز و صحاريه ما قاله ابن جبير في " رحلته " عندما تحدث عن سكان جدة وما يليها من الصحراء و الجبال ، حيث قال :" و أكثر سكان هذه البلدة مع ما يليها من الصحراء و الجبال أشراف علويون : حسنيون و حسينيون ، و جعفريون ، رضي الله عن سلفهم الكريم ، و هم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقاً ، و يستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن : من إكراء جمال إن كانت لهم ، أومبيع لبن أو ماء ، إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه ، و ربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن ، فسبحان المقدر لما يشاء . و لاشك أنهم أهل بيت ارتضى لهم الله الآخرة ، و لم يترض لهم الدنيا ، جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيراً " .

[بدايات سكنى البادية]

قال محمد بن القاسم (مات سنة ٢٨٤) ، و هو عم الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم :" ولم يزل من مضى يابني من الأسلاف من قومكم في قديم

الزمان، تكون لهم البوادي ويتخذونها ويسكنونها في كل بلدة وبكل مكان، **ولم يزل الأشراف قط يتبؤون البادية ويعتزلون عن القرى والمدن في الصحاري والبرية في كل ناحية.**

فاعتزل في أول الدهر والناس حينئذ ناس في أكبر الشأن والأمر، بنو حسن فَتَبَدَّوْا ، أولهم زيد بن الحسن بن علي عليهم السلام في بادية من المدينة تسمى البطحاء على أربعة أميال، فاحتفر بها بياراً، وبنى بها مساكن متباعدة بعضها من بعض ودوراً، **فلم يزل بها بنو حسن بن زيد حتى فرقتهم منها هذه الفتن التي وقعت بالحجاز فكانوا أصح قوم أبداناً ، و أجلدهم جلداً و أظهرهم و أنظرهم ألواناً .**

و اتخذْ يابني ! عمُّكم عبدُالله بن الحسن فيما مضى من الدهر والزمن بادية لنفسه وولده من سويقة ، و أكنافها و أوديتها و شعابها ، فاحتفر بياراً وعيناً بالحَزْرَة في قربها ، فيها بنو عبدالله بن الحسن بن الحسن إلى اليوم ، و بعضهم قد اتسعوا و حلوا في بوادي ينبع والغور " .

[أثر البادية على ذرية عبدالله بن الحسن]

" فبنو عمكم بنو عبدالله بن الحسن يابني منذ نزلوا البادية، أكثرُ قومكم عدداً ، و أجلدهم جلداً ، و أوسعهم منازل وبلداً ، و أكثرهم في معائشهم ارتفاقاً بالمواشي من الإبل و الغنم ، فأقربهم لمجاورتهم العرب إلى أخلاق الحرية والكرم ، قد دربتهم و خرجتهم البادية وأهلها ، فجلدوا واشتدت أبدانهم في منازلهم إن حضروا ، و قووا على السفر إذا احتاجوا إلى أن يسافروا فهان وخف عليهم في السفر سرى الليل ، وكبارهم و صغارهم يركبون صعاب الرواحل وصعاب الخيل ، رجال ذووا رجلة ، مخشوشنون بأدنى اللباس والغذاء مكتفون ، قد زال عنهم بسكنى البادية الإسترخاء ، و التفكك و

الوهن والكسل ، و الكسح و التركك ، لا يشبهون من في المدينة و قربها من قومهم في لباس أولئك برقيق الثياب ، و قلة صبرهم عن لين الطعام وبارد الشراب، قد زال عنهم في البادية ما لزم أكثر الطالبيين بالبادية من قبيح الألقاب ، و لا يعرفون ما يعرف أولئك بالمدينة من اللعب بالحمام ، لأن هؤلاء الذين بالبادية جيرانهم و أخدامهم العرب الأحرار الكرام ، و من بالمدينة من آل أبي طالب فأخدانهم ، و جيرانهم المولّدون من السودان و السفل اللئام ، فكل من هؤلاء و أولئك بمن نشأ معه وجاوره مقتد متأس ، فقد ترك من بالمدينة من العبيد والسفل ، من جاورهم وخادنهم من آل أبي طالب بهم في الدناءة والسقوط . متشبهاً متمثلاً بمذاهبهم محتذياً ... " .
أهـ.

و ليس هذا الأمر مختصاً بذرية عبدالله بن الحسن المثنى ، بل هو في عامة أهل الشرف من القرشيين و العرب ، كما تقدم ذكره .

و لهذا قال محمد بن القاسم الرسي الحسني :"

ولآل الحسين : بوادي العقيق والعريض في البوادي والخلوات.

ولآل جعفر : بوادي الفرش ، و بوادي الغور ، فلكل بطن منهم بوادي ومعتزلات، ولهم منازل في البوادي والخلوات.

ولآل عثمان : باديتان ، وادي بدر وبلد يسمى دعان .

ولآل عمر : بادية الخلائق والحمراء.

ولآل أبي بكر : بوادي ثمر والأجار.

ولآل طلحة : بواد.

ولبني مخزوم و تيم : بوادي حول مكة.

ولبني عامر من قريش وفهر : بواد كثيرة .

وكان يقال لا يتم شرف قوم من الأشراف حتى تكون لهم بادية .
و لم يزل يابني كل من يتمعض ، و يأنف و يتمرأ ، و إنْ لم يكن ذا دين من بطون أشراف قريش إلاَّ ولهم بادية، بل لكل بطن منهم بواد و معتزلات، و منازل في البوادي وخلوات ... " . أهـ.

و قد استمر هذا الشأن في الأشراف بالحجاز ، فهذا **ابن حوقل – من اهل القرن الرابع الهجري – يقول في "صورة الأرض " :" و بقرب ينبع جبل رضوى ، و هو جبل منيف ذو شعاب و أودية ، و رأيته من ينبع كخضرة البقل ، ... و فيما بينه و بين ديار جهينة و سائر البحر ديار للحسنيين يسكنونها ببيوت الشعر نحو سبع مائة بيت بادية كالأعراب ، ينتجعون المراعي و المياه بزي كزي الأعراب ، لا تميز بينهم في خَلقٍ و لا خُلق ، و تتصل ديارهم فيما يلي المشرق بوادي ودّان ، و هو من الجحفة على مرحلة و بينهم و بين الأبواء التي على طريق الحاج في غربيها ستة أميال ، و بها رئيس الجعفريين من ولد جعفر بن أبي طالب ، و له بالفرع و السابرة ضياع كثيرة وعشيرة و أتباع . و بينهم و بين ولد الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام حروب و دماء ، حتى لقد استولت طائفة من اليمن يعرفون بني حرب على ضياعهم و صاروا حرباً لهم و إلباً عليهم ، و قد ضعفوا بخلافهم .. " . انتهى[٢] .**

[بوادي الأشراف و الأخلاق]

و لما كانت هذه البوادي ستظهر شيء من أخلاقها و أعرابيتها على البيوت الشريفة ، فقد كانوا يحترزون من ذلك بعدم مجاورة أهل اللصوصية و الفتن والعصبية ، و لهذا قال محمد بن القاسم الرسي :" .. و عليكم ما بقيتم بسكنى ما حول المدينة من البادية ، و المجاورة في بوادي الحجاز من أهل الكفاف والعفاف من العرب في البوادي، ولا تختلطوا ولا تجاوروا من العرب أهل اللصوصية والفتنة ، و لا تكثروا

دخول مكة والمدينة إلاَّ لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو لحج بيت الله الحرام، أو لأخذ حاجة تحتاجون إليها من الأسواق أو لفتنة هائجة مخوفة غالبة تخافون معها انقطاع الميرة والطعام، فإن كان عندكم ذخيرة، وكانت عندكم بلغة ونفقة و ميرة ، ففي البادية من الأودية والجبال والفروع والمحال في شواهق الجبال ما يعزكم عند كل فتنة إن شاء الله تعالى. " . أهـ.

و عندما ذهبت بعض الذراري من الحجاز و استوطنت المخلاف ، استصحبت الأخلاق والعادات التي تربوا عليها في الحجاز ، فحافظوا على سمات الأشراف وعاداتهم و أخلاقهم ، كما جرى لعقب سليمان بن عبدالله بن موسى الجون . قال في " العمدة " : " **وسمعت أنهم قد بنوا هناك مدنا وقد أبرزوا الجدران ومع ذلك فباديتهم كثيرة وفيهم عدد وأفخاذ وقبائل وشدة بأس ونجدة وفرسان العرب وفتاكها ينتجعون القطن ، أهل نعم وشاة وخيل وعبيد وإماء ، يبارون الريح سخاءً و لهم منع الجار وحفظ الذمار** " .

و كان أشراف الحجاز يعيبون على الأشراف القادمين من خارجه ، إذا اشتكوا من جور السلاطين ، و من ذلك أن " ...**رجلا من الأشراف جلس إليه بمكة ، و هو يشكو جور السلطان ، فأدخل العلويُّ الحجازيُّ يدَهُ في ثيابه ، و قال له : ثيابك هذه الرقاق ، هي التي أضلتك سبيلك ، و العز معه الشقاء** " ! .

و لهذا كان من وصايا الشريف قتادة بن إدريس لذريته أن يلزموا بنية الكعبة و ألا يفارقوها ، و مراده رحمه الله تعالى مكة و ماحولها من بوادي الحجاز ، لما يورثهم ذلك من العز و الأنفة و الحرية . و لهذا قال ابن خلدون عن ملك و إمارة بني قتادة :" و كان ملكهم بها بدوياً " ، وذلك لكثرة تحقيقهم لذلك المعنى في أحوالهم .

[سكنى المدن عند الأشراف]

كانوا ينهون عن سكنى المدن في القرن الثالث و الرابع .. ولو كانت مكة أو المدينة .. فكيف نقول في زماننا ؟! قال محمد بن القاسم :" .. ، و لا تسكنوا في هذا الزمان قصبة المدينة ولا مكة ، .. ". أهـ .

ثم قال :" .. و كذلك فلا تسكنوا مدن العراق ولا مدينة الكوفة فإنهم قد صاروا إلى غاية العداوة و النفاق ، **و ليس لكم بلد و لا لأولادكم أتقى من بوادي الحجاز** ، .. " . أهـ.

إن هذا الموضوع من الناحية التاريخية والنسبية فيه فوائد عديدة و يفسر كثيراً من أحوال قبائل الأشراف ، و يوضح حركة أنسابهم و تحركات أصولهم في الجزيرة العربية ، إلا أن من أعظم آثاره و فوائده في نظري : هي الناحية الاجتماعية و الأخلاقية ، و هي ناحية قليلة الطرح ، و ندر من يتحدث عنها .

هذا ، ... و الله من ورآء القصد ..

يتبع ...

---

[١] و لم أستوعبهم ههنا أو أحيل إلى الهوامش والمصادر ، و ذلك حفظاً لحقوق النشر .

[٢] ص ٣٣٣-٣٣٤

---

[١] عمدة الطالب(١٢٥) ، و انظر : سبك الذهب (٢٩/أ) .

رابط المقالة

http://alalbayt.com/?p=3450